مواساة ، أم مساواة ؟

مواساة طوعية شاملة للحياة ، عمـــل بهـــا
و حث عليها الرسول ﷺ و قام عليها المجتمع الاسلامى المثالى

أم

مســـاواة إجبارية محدودة فى المال يدعو إليـــها الشيوعيون
والاشتراكيون ؟ دراسة ومقارنة ، و دعوة للتفكير و الانصاف

بقـــــــــــــــلم
أبى الحسن عـــلى الحسنى الندوى
أمين ندوة العلماء العـــام لكناؤ
﴿ الهـــــــــــــــند ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدى الكتاب

الحمد لله ، و الصلاة و السلام على رسول الله !

أما بعد ! فهذه قطعة من كتاب المؤلف . الكبير ، الذى هو عاكف على تأليفه ، و إخراجه فى هذه الأيام ، وقد أسماه « الأركان الأربعة ، فى ضوء الكتاب و السنة ، و فى أسلوب العصر الحديث» و هذا هو الفصل الأخير، الذى ختم به البحث فى موضوع الركن الثانى ، الزكاة .

و قد بدا للمؤلف ، أن يفرزها و ينشرها رسالة صغيرة ، لأنها تثير جوانب جديدة هامة من التفكير ، و تلقى ضوءاً على القضية التى تشغل التفكير الانسانى ، و التفكير الاسلامى فى وقت واحد ، من وجهة نظر خاصة ، لعل الباحثين المنصفين يجدون فيها — على وجازة هذه الرسالة و صغرها فى الحجم — مادة جديدة للفكر ، و نواة لبحث علمى أعمق ، و دراسة مقارنة أوسع و أشمل ، و بالله التوفيق ؟

أبو الحسن على الحسنى الندوى

١٨ ، ٤ ، ٨٦ هـ   ٦ ، ٨ ، ٦٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مواساة طوعية شاملة
أم
مساواة إجبارية محدودة ؟

كانت الزكاة المشروعة فى الاسلام ، هى الحد الأدنى للبر والمواساة فى أموال المسلمين و ثروتهم ، و فريضــة لا يقبل الله عنها صرفا و لا عدلا ، و هذا الذى تطالب به الشريعة الاسلامية بكل جد و صرامة ، و تعتبره شرطاً للاسلام ، و شعاراً للمسلم ، و ركناً من أركان الدين الأساسية (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم فى الدين (١)) و الذى ينكرها و يمتنع عن أدائها ـ عمداً و إصراراً ـ يعتبر أنه خلع ربقة الاسلام وفارق المسلمين ، وقد قاتلهم أفضل الأمة بعد نبيها وأفقهها لدينه أبوبكر الصديق ، ووافقه الصحابة رضى الله عنهم ، فكان إجماعامنهم.

و لكن الرسول ﷺ ـ فى حياته الخاصة و فى ذوقه و اتجاهه و

---

١ ـ سورة البراءة ١١

فى تحريضه و ترغيبه و فى وصاياه ، و توجيهاته ، لخاصة أصحابه ، و لمن أراد أن يأتسى به ، و سمت همته ـ لم يقف عند هذا الحد و لم يعتبره المثل الأعلى فى البر و المواساة ، و أداء الحقوق ، و قد عبر عن ذلك فى أسلوبه النبوى الموجز المعجز الذى تقصر عنه عبارات البلغاء وإطناب العلماء ، بقوله : « إن فى المال حقاً سوى الزكاة » فقد روى الترمذى بسنده عن فاطمة بنت قيس ، « سئل أو سألت رسول الله ﷺ عن الزكاة ، فقال : إن فى المال حقاً سوى الزكاة ، ثم تلا : « ليس البر أن تولوا وجوهكم » الآية، و تمام الآية (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق و المغرب و لكن البر من آمن بالله و اليوم الآخر و الملائكة والكتاب و النبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين و ابن السبيل و السائلين و فى الرقاب ، و أقام الصلاة و آتى الزكاة و الموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى الباساء و الضراء و حين البأس، أولئك الذين صدقوا و اولئك هم المتقون (١) .

و قد دلت سيرته فيما آتاه الله من مال ، و سيرته فى أهل بيته الذين كان أعظم هذه الأمة براً بهم و حدباً عليهم، كما قال : « خيركم ، خيركم لأهله ، و أنا خيركم لأهلى (٢) » و سيرته فى أقرب الناس وأحبهم

١ ـ سورة البقرة ١٧٧

٢ ـ رواه الترمذى و الدارمى ، عن عائشة رضى الله عنها ، و رواه ابن ماجه عن ابن عباس رضى الله عنه .

إليه على نظرته النبوية الخاصة التى كان ينظر بها إلى هذه الأموال ، بل إلى هذه الحياة كلها بل إلى هذا الكون كله ، نظرة تقصر عن تصويرها و التعبير عنها المعاجم و الثروة اللغوية - على سعتها و ضخامتها - وتسئ إلى جلالها و سموها ، و نزاهتها و رقتها المصطلحات الاقتصادية الجافة ، إنها نظرة من يستحضر جلال الله وعظمته ، ويتخلق بأخلاقه ، ويستحضر اليوم الآخر (يوم لا ينفع مال و لا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم (١) و يحن إليه أكثر من حنين السمك إلى الماء و أعظم من حنين الطائر إلى وكره ، فينطلق لسانه قائلا : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة (٢)» ويرى إلى هذا المال كزبد البحر أو غثاء السيل، أو حصى البطحاء لايقيم له قيمة ولا وزناً ، ويرى الخلق عيال الله ، ويرى نفسه كولى اليتيم ، و يفضل لغيره الخصب و الرخاء ، و السعادة و الهناء ، و لنفسه وعياله ، وأهل بيته الفاقة و الجوع ، و التقشف وخشونة العيش ، يقول : « أشبع يوما و أجوع يوما (٣) » و يقول : « اللهم أرزق آل

١ - سورة الشعراء ٨٨ ، ٩٨   ٢ - رواه البخارى ج ٢ ص ٩٤٩

٣ - روى الترمذى عن أبى أمامة مرفوعا ، « عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهباً فقلت : لا يا رب ، و لكن أشبع يوما و أجوع يوما ، فاذا جعت تضرعت إليك و ذكرتك ، و إذا شبعت حمدتك وشكرتك .

محمد قوتاً (١) » و يبلغ أزواجــه رسالة الله ، و قد صادفت هواه و رغبته و ذوقه و اتجاهه ، فطاب بها نفساً ، و قربها عيناً (يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا و زينتها فتعالين أمتعــكن و أسرحكن سراحا جميلا ، و إن كنتن تردن الله و رسوله و الدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما (٢) فلم يكن منهن إلا أن آثرن الحياة مع الرسول ﷺ و لم يؤثرن الحياة مع آبائهن و إخوانهن، الذين توسع عيشهم و لانت حياتهم .

و كيف كانت الحياة مع رسول الله ﷺ التى آثرنها و فضلنهـا ؟ إستمع إلى عائشة الصديقة ، تتحدث عنها فى صدقها الموروث و تجربتهـا الواسعة ، و خبرتها التى لا خبرة فوقها « و لا ينبئك مثل خبير »

« ما شبع آل محمد يومين من خبز البر ، و لقد كنا نمكث الشهر و الشهرين لا يوقد فى بيتنا نار ، و ما كان طعامنا إلا التمر و الماء ، و لقد توفى رسول الله ﷺ ، و ما فى بيتنا شئ يأكله ذو كبد إلا كسرة خبز من شعير على رف لى (٣) و يدخل عليه عمر يوما فيراه عــلى حصير قد أثر فى جنبه ، و يرفع رأسه فى البيت فلا يجد إلا إهابا (٤)

١ ـ رواه البخارى ج ٢ ص ٩٥٧

٢ ـ الأحزاب ٢٨ ، ٢٩

٣ ـ رواه البخارى و مسلم وغيرهما

٤ ـ الاهاب كيس من جلد

معلقاً ، و قبضة من شعير ، و حصيراً تكاد تبلى ، فيبكى عمر ، فيقول له رسول الله ﷺ ، ما يبكيك يا ابن الخطاب ؟ فيقول عمر : يا نبى الله و ما لى لا أبكى و هذا الحصير قد أثر فى جنبك ، و هذه خزائنك لا أرى فيها إلا ما أرى ، و ذلك كسرى و قيصر ، فى الثمار و الأنهار ، و أنت نبى الله و صفوته ، فيقول عليه السلام : أ فى شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا (١)

و كان لا يجد الراحة مع المال الفائض عن حاجته التى لا حاجة دونها ، و لا زهد فوقها ، و الفاضل من أموال الصدقة التى يأخذها للتوزيع على فقراء المسلمين ، فعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كان لرسول الله ﷺ عندى فى مرضه ستة دنانير أو سبعة ، فأمرنى رسول الله ﷺ أن أفرقها ، فشغلنى وجع النبي ﷺ ، ثم سألنى عنها ، ما فعلت الستة أو السبعة ؟ قلت لا و الله لقد كان شغلنى وجعك ، فدعا بها ، ثم وضعها فى كفه ، فقال ماظن نبى الله لو لقى الله عزوجل وهذه عنده (٢) . و كان لا يتأخر فى وضع هذه الأموال فى مواضعها ، و إيصالها إلى

١ ـ اقرأ الحديث فى الجامع الصحيح للبخارى ، و مسند ابن حنبل ، و سنن ابن ماجه ، و الألفاظ متقاربة .

٢ ـ رواه أحمد

غايتها ، و لا يرجئ ذلك إلى وقت آخر ، و قد روى عن عقبة بن الحارث قال صليت وراء النبي ﷺ بالمدينة العصر ، فسلم ثم قام مسرعا فتخطى رقاب الناس إلى بعض حجر نسائه ، ففزع الناس من سرعته ، فخرج عليهم فرأى أنهم قد عجبوا من سرعته ، قال ذكرت شئياً من تبر عندنا ، فكرهت أن يحبسنى فأمرت بقسمته (١) و فى رواية قال كنت خلفت فى البيت تبراً من الصدقة فكرهت أن أبيته »

و قد أوصى أصحابه و أمته بمثل هذه الأخلاق و بمثل هذه السيرة وبمثل هذه النظرة إلى المال ، وصايا مرققة مرغبة ، يتخيل من يقرؤها فى كتب الحديث ، أن ليس لأحد حق فى فضل ماله و زائد أسبابه و يتخرج بعد ما يقرؤها ، و يطلع عليها من التنعم بما بسط الله له فى الرزق و التمتع بما وسع الله له فى الدنيا ، و يضيق بميسور العيش و فضول الحياة ، و أطايب الطعام ، و أنواع الثياب ذرعا ، و ما هو إلا حث و تحريض ، و ترغيب و تحريص ، و أسوة الرسول التى يقول الله عنها ، (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله و اليوم الأخر و ذكر الله كثيراً» (٢) وقد صح عنه أنه قال :

« من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، و من كان

١ - رواه البخارى
٢ - سورة الاحزاب ٢١

له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له (١) » و قال : « من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، و من كان عنده طعام ثلاثة فليذهب برابع (٢) » و قال : « ما آمن بي من بات شبعان و جاره جائع إلى جانبه ، و هو يعلم (٣) » و قد روى أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ ، و قال له : « اكسني يا رسول الله فأعرض عنه ، فعاد الرجل يقول : أكسني يا رسول الله فقال له : أمالك جار له فضل ثوبين ؟ قال : بلى ! غير واحد، قال : « فلا يجمع الله بينك و بينه في الجنة (٤) »

و رفع قيمة الانسان ، و قيمة مواساته ، و قضاء حاجته ، إلى أن بلغ ذلك مبلغاً لا يتصور فوقه ، و أصبح من يقصر في ذلك كمن قصر في جنب الله ، فقد جاء في حديث قدسي : إن الله عزوجل يقول يوم القيامة ، يا ابن آدم مرضت فلم تعدني ! فيقول ابن آدم : يا رب كيف أعودك و أنت رب العالمين ؟ فيقول الله : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده ؟ أما إنك لوعدته ، لوجدتني عنده ، يا ابن آدم استطعمتك

---

١ - أخرجه أبوداؤد عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه

٢ - رواه الترمذي ، و قال حسن صحيح

٣ - رواه الطبراني و البزار و اسناده حسن

٤ - رواه الطبراني في الأوسط

فلم تطعمنى فيقول : يا رب كيف أطعمك ، و أنت رب العالمين ؟ فيقول الله : أما علمت أن عبدى فلاناً استطعمك فلم تطعمه ؟ أما أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى، يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقنى ! فيقول : يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى (١) » و قد كان غاية ذلك أن قال ، و لا منزلة فوقه فى العدل و الفضل ، و المواساة و الانصاف :

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه (٢) »

و قد أثرت أسوة الرسول ﷺ فى حياة الصحابة رضى الله تعالى عنهم و فى أذواقهم ، و اتجاهاتهم ، و سيرتهم فى أهاليهم و فى أموالهم التأثير المطلوب المتوقع ، و سرت هذه الروح فى عروقهم و عقولهم و أخلاقهم ، حتى أصبحت حياتهم صورة – بقدر الامكان – لحياة الرسول ﷺ ، و كان أشبه الناس به بطبيعة الحال ، أقربهم إليه و ألصقهم به ، فتجلت فى حياة الخلفاء الراشدين و كبار الصحابة ، و قد روى التاريخ من أخبار زهدهم و برهم و مواساتهم ، و تورعهم فى ذات نفسهم وأهاليهم و إيثارهم لشظف العيش و قلة الأسباب ، و التقشف ما لا يزال ذروة فى تاريخ الأخلاق و الديانات ، لا يصل إليها السابقون فى الأمم .

---

١ – رواه مسلم

٢ – رواه البخارى

فمن ذلك ما رواه المؤرخون أن امرأة أبى بكر الصديق خليفة المسلمين اشتهت حلوى و استفضلت من نفقتها من عدة أيام ما تشتريه به ، فلما علم ذلك رد الدريهمات إلى بيت المال ، و أسقط من نفقته كل يوم ما فضل منها لثمن الحلوى ، لأنه ليس من الحاجات التى يعيش عليها الانسان ، و ليس بيت مال المسلمين لتترفه به أسرة الحاكم ، و تتوسع به فى المطاعم .

و زهد عمر فى حياته و تقشفه مضرب المثل فى التاريخ ، و يكفى أن تقرأ خبر رحلته بصفته خليفة و أميراً للؤمنين إلى الجابية ، فكان على جمل أورق تلوح صلعته للشمس ليس عليه قلنسوة ولا عمامة تصطفق رجلاه بين شعبتى الرحل بلا ركاب، وطاءه كساء انبجانى ذو صوف هو وطاءه إذا ركب و فراشه إذا نزل ، حقيبته نمرة أو شملة محشوة ليفاً ، هى حقيبته إذا ركب و وسادته إذا نزل و عليه قميص من كرابيس قد رسم و تخرق جنبه (١) .

و أما عثمان و هو أكثر إخوانه مالا و أوسعهم أسباباً ، فقد روى شرحبيل بن مسلم أن عثمان بن عفان رضى الله عنه كان يطعم الناس طعام الامارة و يدخل فى بيته فيأكل الخبز و الزيت ، و أما على

١ - البداية و النهاية ج ٧ ص ٥٩ ، ٦٠

بن أبي طالب ، فهو من زهاد الصحابة المعدودين المعروفين، يصفه صاحبه ضرار بن ضمرة فيقول :

« يستوحش من الدنيا و زهرتها ، و يستأنس بالليل و ظلمته؛ كان والله غزير الدمعة طويل الفكرة ، يقلب كفه و يخاطب نفسه ، و يعجبه من اللباس ما خشن ، و من الطعام ما جشب ، كان ـ و الله ـ كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ، و يتبدئنا إذا أتيناه ، ويأتينا إذا دعوناه (١) »

وكان تأثير هذه الأسوة فى الصحابة بقدر اتصالهم بصاحبها وطول عشرتهم له ، فكانت لعائشة أم المؤمنين حبيبة رسول الله ﷺ اليد الطولى فى ذلك ، و قد روى المؤرخون « إنها تصدقت مرة بمائة ألف درهم ، و ليس عليها إلا ثوب خلق ، و كانت صائمة ، فقالت لها خادمتها : لو أبقيت شئياً لتفطرى عليه ! فأجابتها ! لو ذكرتنى لفعلت ، و تصدقت بمائة ألف و هى جائعة فنسيت نفسها و ذكرت الناس ! (٢) »

و سرت هذه الأخلاق و هذه الروح فى المجتمع الاسلامى الأول، فكان ذلك دأب الصحابة و ديدنهم ، يقول ابن عمر رضى الله عنهما ، « لقد أتى علينا زمان ـ أو قال : حين ـ و ما أحد أحق بديناره

١ ـ صفوة الصفوة لابن الجوزى
٢ ـ رواه الحاكم فى المستدرك

ودرهمه من أخيه المسلم (١) »

وكانت نتيجة ذلك حوادث طريفة فى المواساة تكاد تبلغ إلى حد المساواة، وحسن الجوار يبلغ إلى آخر نقطة فى الايثار، من ذلك ما رواه ابن عمر بنفسه، قال: « أهدى لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة فقال فلان أحوج منى إليه فبعث به إليه فبعثه ذلك الانسان إلى آخر، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى رجع إلى الأول بعد أن تداولته سبعة (٢) ».

وانتقل هذا الشعور الدقيق، والحس المرهف والغرام بالمواساة وانتقل فى الأجيال الاسلامية اللاحقة، وكان للتابعين باحسان القدح المعلى فى ذلك بطبيعة الحال، يقول سيد التابعين الحسن البصرى: « لقد عهدت المسلمين وأن الرجل منهم يصبح فيقول: « يا أهليه! يا أهليه! يتيمكم، يتيمكم، يا أهليه! يا أهليه! مساكينكم، مساكينكم، يا أهليه! يا أهليه! جاركم، جاركم، (٣) » وكان لبنى هاشم وسادة أهل البيت قدم صدق فى هذا المضمار، وقد روى التاريخ عن جود الحسن بن على وعبد الله بن جعفر، ورقة عاطفتهما الشئ الكثير، وكان لعلى بن

١ ـ رواه البخارى فى الادب المفرد
٢ ـ احياء علوم الدين للغزالى ج ٢ ص ١٧٤
٣ ـ رواه البخارى فى الادب المفرد

حسين بن على رضى الله عنه و عن آبائه التقدم و الرئاسة فى هذه المآثر والمكرمات ، قال محمد بن اسحاق : « كان ناس بالمدينة يعيشون لايدرون من أين يعيشون ؟ و من يعطيهم ؟ فلما مات على بن الحسين فقدوا ذلك فعرفوا أنه هو الذى كان يأتيهم بالليل بما يأتيهم به ، و لما مات وجدوا فى ظهره وأكتافه أثر حمل الجراب إلى بيوت الأرامل والمساكين (١) »

و توارثت الأجيال الاسلامية الفاضلة هذه السيرة و هذا الذوق الرفيع ، و هذا الحس المرهف ، و هذه الحسبة الدقيقة على نفوسهم و أموالهم و مثلها الراسخون فى العلم و الدين ، و الربانيون و المربون أجمل تمثيل و أروعه فى كل عصر و فى كل بلد ، و زخرت بأمثالها و روائعها كتب التاريخ و التراجم ، و ما فاتها وأفلت من استقصاء مؤلفيها البارعين فذكر فى غير مظانه أغرب و أروع مما حوته كتب التاريخ ، و كان شعار الربانيين و الشيوخ المربين و مبدأهم أن لا يبيت عندهم درهم و لا دينار ، و أن يؤثروا على أنفسهم و لو كان بهم خصاصة ، و أن يكون ما يكرمهم الله به من أموال و هدايا و طرف و خيرات تأتيهم من الملوك و الأمراء ، و الأغنياء و الأثرياء وقفاً على فقراء البلد و ذوى

---

١ ـ أكثر هذه الأمثال و الحكايات ، التقطناها من كتاب « اشتراكية الاسلام » لصديقنا المرحوم الأستاذ مصطفى السباعى .

الحاجات الذين لا سبيل لهم إليها ، فكان مبدؤهم و سيرتهم أن « توخذ من أغنيائهم و ترد على فقرائهم » فكانت سفرتهم من أوسع الموائد و أغناها لجميع طبقات الناس، كما كان قلبهم من أوسع القلوب ، و أسخاها لجميع الناس ، و قد أثر عن سيدى عبد القادر الجيلى ، الذى يعبر فيه عن جميع إخوانه ، ومن كان على شاكلته أنه قال : « كفى مثقوبة لاتضبط شيأً ، لو جاءنى ألف دينار لم تبت عندى (١)» و قال : « أود لو كانت الدنيا بيدى أطعمتها الجائع (٢) »

و كان لأبعد ثغور الاسلام و لأقصى أطراف العالم الاسلامى ؛ من هذه السيرة ، و من هذا الضرب من الناس ؛ و من هذا الطراز الانسانية نصيب غير منقوص ؛ وتراجم هولآء المخلصين الربانيين والدعاة المربين حافلة بنوادر الحكايات و روائع الأخبار فى الزهد و الايثار ؛ و المواساة و المساواة ؛ و الاريحية و النهامة ببذل الأموال ؛ و حسبنا أن نعرض نموذجين من هذه النماذج التى تكاد تكون مطردة فى حياة هذه الطبقة ؛ و سيرها متشابهة ؛ و أخلاقها متشاكلة، كتشابه الأوراق فى الشجرة ، فكلهم من غرس تعاليم النبوة و فروع شجرة (أصلها ثابت و فرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها)

١ ـ قلائد الجواهر ص ١٠ ٢ ـ أيضا

منها أن الشيخ نظام الدين الدهلوى من رجال القرن الثامن الهجرى يقول خادمه : إنه كان يترك الطعام المنوع الفاخر عنده للتسحر ، فكان يجتزىء بلقيمات ويقول : أجده فى بعض الأيام لم يتناول منه شيئاً وكنت أراه لا يفطر إلا بما يقيم الصلب ، فقلت له يوما ، نفسى فداك كيف يحافظ سيدى على حياته و صحته مع هذا التقايل من الغذاء ؟ ففاضت عينه على ذلك ، و غلبه البكاء ، و قال يا فلان ! كم من فقير بائس ، و كم من مسافر بات فى المساجد و الطرقات على الطوى لم يجدوا لقمة يتقوون بها ، فكيف أسيغ هذا الطعام و الناس يبيتون جياعا ، ويصبحون جياعا (١) » فلما دنت وفاته طلب أصحابه و قال لهم : إذا ادخر إقبال « خادمه » شيئاً من الحبوب و الطعام ، فاشهدوا أنى برىء من ذلك ، و أنه هو المسؤل أمام ربه ، فقال إقبال : إننى لم أترك شيئاً ، و قد تصدقت بكل ما وجدته إلا حبوباً يأكلها المقيمون فى هذه الزاوية بضعة أيام فقال : أدعوا الى الناس فلما حضروا فقال : دونكم الحبوب وماتجدون فى هذه الزواية من الرزق و الطعام فنهبوه نهباً ، و أمرهم بأن يكنس ذلك المكان ، و يجعلوه قاعا صفصفاً .

و النموذج الثانى ما رواه مؤرخ هندى عن الشيخ السيد محمد سعيد

١ ـ سير الاوليا

الأنبالوى ، و هو من رجال القرن الثانى عشر ، فيقول : « زاره مرة روشن الدولة و كان أميراً من أمراء السلطان «فرخ سير» (ملك الهند المغولى) و قدم ستين ألف روبية (١) لبناء زاويته ، فأمره الشيخ أن يترك هذا المال فى مكان ويستريح ، فانصرف « روشن الدولة ؟ فأرسل الشيخ إلى الفقراء ، و أرسل هذا المال إلى الأيامى و المساكين، و أهل الحاجة فى ضواحى البلد و فى المدن المجاورة حتى لم يبق منه فلس ، فلما أتى روشن الدولة قال له : « لا يبلغ الثواب فى بناء العمارة ثواب خدمة ذوى الحاجة و الفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله » و وصلته مرة رسائل السلطان محمد فرخ سير والأمير روشن الدولة ، والأمير عبد الله خان ، وأمر بثلاث مائة ألف روبية (٢) فوزعها كلها فى القرى المجاورة و الأشراف الساكنين فيها (٣) »

و قد يقول القارىء إن هذه سيرة طبقة زهدت فى الدنيا و رفضت

---

١ ـ تساوى أربعة آلاف جنيه استرلينى ، وإن قدرت قدرتها الشرائية ذلك اليوم تصبح أضعافا مضاعفة

٢ ـ تساوى 14000 جنيهاً استرلينياً

٣ ـ نظام التعليم و التربية « فى أردو » المجلد الثانى ، للعلامة مناظر أحسن الكيلانى .

أسبابها و عاشت فى عزلة عن الدنيا و عن الناس ، فهل هناك أمثلة لهذه الزهادة والبر و المواساة والاستغناء و الايثار فى طبقات أخرى من هذه الأمة ؟ و يجيبهم التاريخ الأمين فيقول : نعم ! و فى كل طبقة من طبقات هذه الأمة ، وفى كل جيل من أجيالها و فى كل بيئة من بيئات دنيا الاسلام من ائتسى بالرسول ﷺ و أتى بغرائب فى هذه الأخلاق و فى سيرته، فى ماله و فى عياله و جيرانه و أهل بلده ، و أبناء جنسه ، ولكن التاريخ لم يسجل إلا مآثر من لفت نظره و فرض عليه ذكره ، وتسجيل حوادث حياته وجوانب شخصيته من الملوك و الأمراء والصلحاء والعلماء ، و نقتصر هنا على طبقتين فحسب ، و هما طبقة العلماء الأعلام ، و طبقة الملوك و الحكام .

نختار من طبقة العلماء الأعلام شيخ الاسلام الحافظ ابن تيمية الذى ينتقد عليه من لا يعرفه الجفاف ، و يعتقدون أن الجانب العلمى يطغى على الجانب العاطفى ، يقول عنه معاصره الحافظ ابن فضل الله العمرى :

« كانت تأتيه القناطير المقنطرة من الذهب و الفضة والخيل المسومة و الأنعام و الحرث ، فيهب ذلك بأجمعه و يدعه عند أهل الحاجة فى موضعه لا يأخذ عنه شيئاً إلا ليهبه ، و لا يحفظه إلا ليذهبه » و قد بلغ من السخاء و الايثار أن كان يخلع ما كان عليه من ثياب و يقدمها إلى

السائل إذا لم يجد شيئاً آخر ، يقول الحافظ ابن فضل الله :

« كان يتصدق حتى إذا لم يجد شيئاً نزع بعض ثيابه فيصل به الفقراء » و يقول أحد الرواة : « و كان يتفضل من قوته الرغيف و الرغيفين ، فيؤثر بذلك على نفسه (١) »

و نختار من طبقة الملوك و الحكام السلطان صلاح الدين الأيوبى الذى حكم أكبر دولة إسلامية فى عصره يشهد عنه صديقه و رفيقه ابن شداد فيقول : « إنه ملك ما ملك ، و مات و لم يوجد فى خزانته من الفضة إلا سبعة و أربعون درهما ناصرية ، و من الذهب إلا جرم واحد صورى ، ما علمت وزنة »

و لما مات هذا السلطان العظيم الذى كان يحكم من حدود الشام الشمالية إلى صحراء النوبة فى الجنوب ، لم توجد فى خزانته ما يكفنونه و ينفقون على تجهيزه ما قيمته حبة واحدة إلا بالقرض ، حتى فى ثمن التبن الذى بلت به الطين ، و أخرج بعد صلاة الظهر ، فى تابوت مسجى بثوب فوط ، و كان ذلك و جميع ما احتاج إليه من الثياب فى تكفينه ، قد أحضره القاضى الفاضل من وجه حل عرفه (٢) »

---

١ - الكواكب الدرية

٢ - النوادر السلطانية و المحاسن اليوسفية لابن شداد ص ٢٥١

وليست هذه قصة جيل واحد ولاقصة مدرسة واحدة من المدارس الفكرية و الروحية الكثيرة، فلم يزل هذا شعار العلماء الربانيين والشيوخ الكاملين، و لم يزل مبدؤهم • لكل يوم رزقه و قوته • فلم يكونوا يدخرون شئياً و لا يشحون بشئ خشية الاقتار، و على ذلك أدركنا شيوخنا و أساتذتنا، فكانوا يتحرجون من أن يفضل عندهم شئ يحتاج إليه عباد الله، أو يبيت عندهم درهم أو دينار و هم فى غنى عنهما، و كان ذلك فى غير رهبانية أو تحريم لما أحل الله، وكذلك فى غير تشريع لما لم يشرعه الله، و لا فى تشديد فيما لم يشدد الله فيه، و لا إجبار و إرهاق، و لكنه خوف من المحاسبة و رأفة بالخلق، وتأس بأسوة الرسول وسيرته فى الانفاق و الايثار، و تطوع و تبرع، و ترغيب صامت بالأمثال العملية، و النماذج الحية، فكان لها التأثير العميق فى النفوس و القلوب، يحمل التلاميذ و المحبين على التقليد، و الاتباع.

فكان المجتمع الاسلامى ـ على علاته و على أدوائه الكثيرة التى لم يزل المصلحون يحاربونها ـ أفضل المجتمعات البشرية فى عاطفة البر و المواساة التى تغلغلت بفضل التعاليم الاسلامية فى أحشائه، و أكثرها تحرراً من عبادة المادة و المعدة، يكثر فيها الأفراد الذين يثورون على سلطان المادة و يخضعونها لسلطان الدين و المثل الخلقية الاسلامية، فكان

التنافس التجارى و الأثرة الفردية أو الطبقية أضعف فيه (١) منه فى المجتمعات التى لا تؤمن بحياة غير هذه الحياة، و لا تعرف غاية غير غاية الثراء و الرخاء، و تسوقها المثل الاقتصادية سوقا عنيفاً لا رحمة فيه ولا هوادة، فكانت هذه سمة المجتمع الاسلامى، رغم أنه بلغ منتهى الضعف فى العصر الأخير، وكان أكثر استعداداً و قابلية للتقدم فى مضمار العدالة الاجتماعية، و تحقيق المثل الانسانية العليا من كل مجتمع بشرى، لخضوعه للمبادىء الاسلامية فى قليل أو كثير، و لوجود الرباط الايمانى الذى يربط أفراده و يجمع أشتاته.

---

(١) «حدثنى بعض الثقات المعمرين الذين أدركوا عهد الأشراف فى الحجاز، أن تجار مكة كانوا فى ذلك العهد على جانب عظيم من المواساة لزملائهم و النظر فى مصالحهم، و الاخلاص والايثار لهم، قال: كان بعض التجار إذا أتاه زبون فى آخر النهار، وقد باع ما يكفيه لقوت يومه، و ما حدده من الربح و الوارد، ولم يكن زميله الجار سعيد الحظ فى ذلك اليوم، قال له فى لطف و هدوء: «دونك هذا الدكان الذى هو بجوارى! تجد عنده ما تجده عندى وقد لاحظت قلة الزبائن عنده هذا اليوم فهو أحق بأن تشترى منه» و يتحدث الأستاذ محمد أسد النمساوى عن مدينة إسلامية

ثم جاء أقوام فقدوا الثقة بالانسان و الانسانية ، ففضلوا المساواة الاجبارية المحدودة فى المال ، على المواساة الطوعية الشاملة للحياة ، ونسوا أو تناسوا ، أن المال ليست هى حاجة الانسان الوحيدة ، و أن المساواة فيه أو الشركة لا تسد كل فراغ فى نفسه و فى مشاعره و أحاسيسه و فى

●● عربية كبيرة (هى دمشق) فيذكر انطباعاته كما يلى :

« وقفت على ذلك الاستقرار الروحى فى حياة سكانها ، أن أمنهم الباطنى كان يمكن أن يرى فى الطريقة التى كان أصحاب الدكاكين يعاملون بعضهم بعضاً أولئك التجار فى الحوانيت الصغيرة ، أولئك الذين لا ينون ينادون على المارة أولئك كانوا يبدون و كأنما ليس فيهم أيما قدر من الخوف و الحسد ، حتى إن صاحب دكان منهم ليترك دكانه فى عهدة جاره و مزاحمه ، كلما دعته حاجة إلى التغيب بعض الوقت ، وما أكـــثر ما رأيت زبوناً يقف أمام دكان غاب صاحبه عنه يتساءل فى ما بينه وبين نفسه ، ما إذا كان ينتظر عودة البائع أو ينتقل إلى الدكان المجاور ؟ فيتقدم التاجر المجاور دائمـــاً ـ التاجر المزاحم ـ و يسأل الزبون عن حاجته ، و يبيعه مايطلب من البضاعة ـ لا بضاعته هو بل بضاعة جاره الغائب ـ و يترك له الثمن على مقعده ، أين ؟ فى أوربا يستطيع المرء أن يشاهد مثل هذه الصفقة ؟ » (الطريق إلى مكة ص ١٦٧ باختصار)

حياته ، و لا تضمد كل جرح من جروجه ، إن حاجته إلى مواساة شاملة للحياة كلها أشد من حاجته إلى مساواة فى المال كله ، و فى المرافق كلها ، و فى الموارد بأسرها ، و قد تفعل كلمة رقيقة ، أو دمعة بريئة يثيرها الشعور بالألم ، ما لا تفعله الأموال الطائلة ، و العطايا السخية ، وهو فى حاجة إلى مساعدة إخوانه ، وإعانتهم فى بعض الأحيان ، و إلى مشاركتهم فى آلامه و متاعبه فى أحيان أخرى ، و إلى رقة شعورهم ودقة إحساسهم حيناً ، و إلى لين عريكتهم و دماثة خلقهم و بشرهم ، و حسن لقائهم حيناً آخر ، ولذلك كان التوجيه النبوى أشمل لأنواع البر والمواساة ، و أصدق تعبيراً عن الأحاسيس الانسانية ، فقال النبي ﷺ و هو يذكر طرق البر و أنواع الصدقة : « تعدل بين الاثنين صدقة ، و تعين الرجل فى دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة و بكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، و تميط الأذى عن الطريق صدقه (١) » و فى حديث آخر « قال يعين ذا الحاجة الملهوف ! قال أرأيت إن لم يستطع ؟ قال يأمر بالمعروف أو الخير ، قال أرأيت إن لم يفعل ؟ قال يمسك عن الشر فانها صدقة (٢) » و فى حديث آخر « قال تعين صانعاً أو تصنع لأخرق قلت يا رسول الله ﷺ أرأيت إن ضعفت

---

١ - متفق عليه ٢ - أيضاً

عن بعض العمل ؟ قال تكف شرك عن الناس فانها صدقة منك على نفسك(١) • و فى حديث آخر « و تبسمك فى وجه أخيك لك صدقة ، و أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة وإرشادك الرجل فى أرض الضلال لك صدقة ، وبصرك للرجل الردى البصر لك صدقة ، و إماطتك الحجر و الشوك و العظم عن الطريق لك صدقة ، و إفراغك من دلوك فى دلو أخيك ، لك صدقة (٢) •

و كانت نتيجة هذا الاختيار غير الموفق و إيثار المساواة أو الاشتراكية التي تفرضها الحكومة على المواساة التى تنبع من أعماق القلوب و تتدفق فى نواحى الحياة و فى عروق المجتمع ، أن قام مجتمع فى هذه البلاد • الشيوعية و الاشتراكية • لا يعرف أهله لذة المواساة لبنى الجنس والعطف على الانسانية ، و الرقة للضعفاء والفقراء ، والاخلاص والنصيحة للشركاء و الزملاء ، و يصبحون كلهم تجاراً متنافسين ، و أعداءاً متباغضين لا يثق أحد بأحد ، و لا يتنازل أحد لأحد ، بعضهم يتجسس على بعض و يلفق عليه الأخبار ، و يزور عليه القضايا ، ويشمت بمصابه ، ويحزن بسعادته ، و يتحول البلد كله إلى ميدان حرب أو بناء محكمة .

وكانت نتيجة هذا الوضع أن فقد الناس الشعور بالمسولية والنهوض

---

١ - متفق عليه ٢ - رواه الترمذى عن أبى ذر مرفوعا

بالتبعات ، الذى فيه سر الشرف الانسانى، وتخلوا عن كل عهدة ومسؤلية وأصبحوا هملا وسوائم ، لا هم لها إلا العلف والرتع ، والشبع المفرط و انتقلت كل مسؤلية و كل تبعة إلى الحكومات ، و إلى الجهاز الادارى و إلى القوانين و العقوبات ، و أصبح المجتمع غلاما قاصراً لا تمييز عنده و لا عقل ، فالحكومة هى التى تأخذ وتعطى ، و تهئ لكل فرد حاجته ، و تتكفل بذلك، فلا معنى للعطف و المواساة و لا معنى للسخاء و الايثار و لا حاجـــة إلى شئ من ذلك ، فكل شئ مكفول مضمون و الناس كالآلات الصماء .

لقد تجلت فوائد المواساة الطوعية و نتائجها الباهرة ، و ما جرت على أهلها من الراحة و الهدوء ، و السعادة الداخلية ، و الثقة المتبادلة ، و الحب المشترك ، و السلام الشامل ، و لذة الروح و رضـا الضمير ، و الاعتزاز بالانسانية ، و التفاؤل فى الحياة ، و شعور كل فرد بمسؤليته وواجبه ، لقد تجلى كل ذلك فى المجتمع الاسلامى المثالى الأول فى أروع مظاهره ، و أجمل مناظره ، و أعمق معانيه ، ويتجلى فى كل مجتمع يأخذ بمبدأ المواساة الطوعية الشاملة ، مقابل المساواة الاجبارية المحدوده ، أو الاشتراكية الضيقة الجامدة ، فأعضاء المجتمع متحابون متناصحون ، شهداء بالخير ، يزكى بعضهم بعضاً ، و كل جيل يشهد للجيل الذى سبقه بالفضل

و السبق ، و يدعو له بالقبـــول و المغفرة ، (و الذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفرلنا و لاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولاتجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنـا إنك رؤوف رحيم (١) ذلك هو المجتمع الذى كان كل عضو من أعضائه مرآة لأخيه يقيسه على نفسه فينفى عنه كل تهمة و يبرئه من كل نقيصة ، فقد قال الله تعـالى : « لو لا إذ سمعتموه ظن المؤمنون و المؤمنات بأنفسهم خيراً و قالوا هذا إفك مبين (٢)» المجتمع الذى ضرب النبي ﷺ له مثلا بليغاً ، فقال « مثل المؤمنين فى توادهم و تراحمهم و تعاطفهم مثل الجسد ، إذ اشتكى مـــنه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر و الحمى (٣) » المجتمع الذى كل عضو فيه حارس كريم، و ناصح أمين لصاحبه ، فقد جاء فى الحديث : « المسلم أخو المســلم ، لا يخونه ، و لا يكذبه ، و لا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام ، عرضه و ماله و دمه (٤) » .

حين أصبحت الحياة فى بلاد كثيرة شقاءاً و جحيما « كلمـا دخلت أمـــة لعنت أختها (٥) » و كلمـا جاء « دكتاتور » لعن السابق و رماه

---

١ - سورة الحشر 10　　　٢ - سورة النور 12

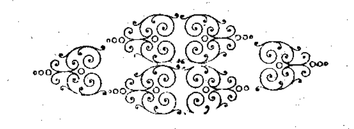
٣ - حديث متفق عليه

٤ - رواه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه

٥ - سورة الاعراف 38

بالغدر والخيانة، وكل من تسلم زمام القيادة، انتقم من أعدائه ومنافسيه انتقاما شديداً، و اضطهد و حاكم و سفك الدماء، «و إذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث و الفسل والله لا يحب الفساد(١)

فمن أبى إلا الطريق الشاقة الطويلة، و التجربة المرهقــة العقيمة، قيل له و لأمثــاله، «أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير إهبطوا مصراً فان لكم ما سألتم (٢)»



---

١ ـ البقرة 205

٢ ـ البقرة 61